المسألة الثانية

حاجتنا إلى مقاصد الشريعة

إذا كانت « المقاصد أرواح الأعمال »[1] كما يقول إمام المقاصد أبو إسحاق الشاطبي ~ ، فإن العجب كل العجب أن يعيش الناس بلا مقاصد ، أي بلا أرواح ، فالفقه بلا مقاصد فقه بلا روح ، والفقيه بلا مقاصد فقيه بلا روح ، إن لم نقل : إنه ليس بفقيه .

والمتدين بلا مقاصد متدين بلا روح ، والدعاة إلى الإسلام بلا مقاصد هم أصحاب دعوة بلا روح .

فأنَّى نتفقه حقيقة ، ونتدين حقيقة ، وندعو إلى الإسلام حقيقة ؟!

حاجة الفقيه والمتفقه إلى معرفة مقاصد الشريعة :

فأما حاجة الفقيه والمتفقه إلى معرفة مقاصد الشريعة ،

---

(١) الموافقات (٢/ ٣٤٤) .

فحسبنا في ذلك أن الفقه ـ حتى في أصله اللغوي ـ لا يتحقق إلا بمعرفة حقائق الأشياء ، والنفوذ إلى دقائقها وأسرارها ، فليس الفقه ـ حقًّا ـ سوى العلم بمقاصد التشريع وأسراره .

وفيه يقول العلامة الكبير شاه ولي الله الدهلوي : « وأولى العلوم الشرعية عن آخرها ـ فيما أرى ـ وأعلاها منزلة وأعظمها مقدارًا ، هو علم أسرار الدين ، الباحث عن حجج الأحكام ولمياتها وأسرار خواص الأعمال ونكاتها ؛ إذ به يصير الإنسان على بصيرة فيما جاء به الشرع »(١) .

وحين تجرد الفقه من مراعاة المقاصد ، ومن بيانها وتوجيه المكلفين إليها فهمًا وطلبًا ، حينذاك بدأ يتحول إلى مجرد قوانين تتسم بالظاهرية والجفاف والبرودة ، وبدأ يصاب بالشلل العلمي والعملي .

وقد عدَّ الشيخ ابن عاشور : « إهمال النظر في مقاصد

---

(١) حجة الله البالغة (٢/ ٢١) .

الشريعة .... »[1] واحدًا من الأسباب الرئيسية في تخلف الفقه وجموده ، وقبله نجد الشيخ الشهيد محمد بن عبد الكبير الكتاني يذهب أبعد منه ، حيث يعتبر : « أن من أسباب انحطاط الملة ذكر الأحكام مجردة عن أسرارها .... »[2] .

حاجة المتدين في تدينه إلى مقاصد الشريعة :

وأما المتدين في تدينه وتطبيقه لأحكام الشريعة ، فإنه ـ إذا كان فاقدًا للمقاصد ـ يبقى عرضة للسآمة والضجر ، وعرضة للتلكؤ والانقطاع ، وقد يتعرض حتى للحيرة والاضطراب ، وأما الإتيان بالأعمال على غير وجهها ودون إتقانها وإحسانها ، فحدث ولا حرج ، وانظر يمنة ويسرة ، فلن ترى غير هذا وذاك إلا من رحم ربك ، وقليل ما هم .

وعلى العكس من ذلك ، فإن معرفة مقاصد الأعمال تحرك النشاط إليها ، وتدعو إلى الصبر والمواظبة عليها ، وتبعث على إتقانها والإحسان فيها .

---

(1) أليس الصبح بقريب ؟ (ص٢٠٠) .

(2) ترجمة الشيخ محمد الكتاني الشهيد (٣٥) .

فمن وجبت عليه الزكاة وهو لا يدري لها مقصدًا ، ولا يرى لها فائدة يجنيها ، كان إلى التهرب منها أقرب ، فإن لم يتهرب منها تحايل في تقليلها وتأخيرها ، وأداها من أردئ ما يملكه ، وكان مع ذلك مستاء متحسرًا .

فإذا وضحنا له ما جاء في القرآن الكريم من أن المزكي يستفيد من زكاته بأكثر مما يستفيده آخذ الزكاة وقبله ، وأن زكاته طهارة له وبركة لماله ، وأنه يستحق بها دعاء الرسول والمؤمنين ، وأن ذلك يجلب له السكينة والرحمة ، وجعلناه على بصيرة من قوله تعالى : ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ [التوبة:١٠٣] . وجعلناه على بصيرة من سائر المصالح التي تترتب على أداء الزكاة ، فلا شك أن موقفه سيتغير وأن تطبيقه سيرتقي ، وهكذا يقال في سائر التكاليف .

وفي القرآن الكريم والسنة النبوية نماذج عديدة من هذا القبيل ، ينبغي الاعتبار بها ، والاقتداء بها في تنبيه المكلفين على مقاصد التشريع ، وحضهم بذلك على اتباعه وابتغاء

مقاصده ، فمن ذلك أيضًا التنبيه الوارد في قوله تعالى : ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ .

[النحل:٩٨، ٩٩]

قال ابن عاشور : وجملة : ﴿ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ ﴾ تعليل للأمر بالاستعاذة من الشيطان عند إرادة قراءة القرآن وبيان لصفة الاستعاذة .

فأما كونها تعليلًا فلزيادة الحث على الامتثال للأمر بأن الاستعاذة تمنع تسلط الشيطان على المستعيذ ؛ لأن الله منعه من التسلط على الذين آمنوا المتوكلين . والاستعاذة منه شعبة من شعب التوكل على الله ؛ لأن اللجأ إليه توكل عليه . « وفي الإعلام بالعلة تنشيط للمأمور بالفعل على الامتثال إذ يصير عالمًا بالحكمة »(١) .

وفيما يلي أذكر مثالًا واقعيًّا من سيرة النبي ﷺ وصحابته ﷺ ، فبعد غزوة حنين قسَّم النبي ﷺ الغنائم ، وكانت عظيمة

(١) التحرير والتنوير لابن عاشور (١٧/ ٢٤٦) .

جدًّا ، وقد أكثر عليه السلام من العطاء لأهل مكة وغيرهم من المؤلفة قلوبهم ـ وكان إسلامهم حديثًا جدًّا ـ ولم يعط الأنصار شيئًا ، فتأثر الأنصار لذلك ، حتى حسب بعضهم أن النبي ﷺ قد آثر قومه بالعطاء بعد أن عاد إليهم وعادوا إليه .

وفي رواية ابن إسحاق عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه ، أن سعد بن عبادة ـ أحد زعيمي الأنصار ـ دخل على النبي ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحي من الأنصار قد وجدوا عليك في أنفسهم لما صنعت في هذا الفيء الذي أصبت ، قسمت في قومك ، وأعطيت عطايا عظامًا في قبائل العرب ، ولم يكن في هذا الحي من الأنصار شيئًا ، قال : « **فأين أنت من ذلك يا سعد ؟** » ، قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومي ، فأمره بجمع الأنصار ، فلما اجتمعوا دخل عليهم رسول الله ﷺ ، فحمد الله وأثنى عليه ، وقال : « **يا معشر الأنصار ، مقالةٌ بلغتني عنكم وجِدَةٌ وجدتموها عليَّ في أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالًا فهداكم الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟**

وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟ » ، قالوا : بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل . ثم قال : « **ألا تجيبونني يا معشر الأنصار ؟** » ، قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل ، قال : « **أما والله لو شئتم لقلتم فلَصدقتم ولصدِّقتم : أتيتنا مكذبًا فصدقناك ، ومخذولًا فنصرناك ، وطريدًا فآويناك ، وعائلًا فآسيناك ، أوجدتم يا معشر الأنصار في أنفسكم في لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله ﷺ إلى رحالكم ؟ فو الذي نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعبًا وسلكت الأنصار شعبًا ، لسلكت شعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار** » ، فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم وقالوا : رضينا برسول الله قسمًا ، وحظًّا [1] .

---

(1) سيرة ابن هشام (٢/ ٤٩٩، ٥٠٠) ، وانظر : صحيح البخاري ، كتاب المغازي ، غزوة الطائف .

فهؤلاء الأنصار، الفضلاء الأخيار، حين لم يدركوا مغزى ما فعله رسول الله استاؤوا وتشوشوا، وحين بين لهم ﷺ مقاصده ومراميه انشرحوا ورضوا واطمأنوا، ولقد كان من الممكن أن يقال لهم: هذا حكم الله ورسوله فارضوا به وسلموا تسليمًا، وليس لكم أن تتقدموا ولا أن تتكلموا.

وهذا كلام صحيح لا غبار عليه، ولكن حين يكون معززًا ببيان المقاصد والحكم، ولا سيما في موارد الاستشكال والالتباس، يكون أصح وأتم، ويكون التصرف اللازم أنسب وأسلم: ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

حاجة الدعاة إلى معرفة مقاصد ما يدعون إليه:

وأما حاجة الدعاة إلى معرفة مقاصد ما يدعون إليه، فذلك مما يقتضيه قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ [يوسف:١٠٨].

فأول ما يدخل في «الدعوة على بصيرة» هو أن يكون

الداعي بصيرًا بما يدعو إليه ، ولا يكون بصيرًا بما يدعو إليه إلا بقدر ما يعرف من مقاصده ومراميه ، وفي قوله ﷻ : ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل:١٢٥] ، ما يقتضي الإحاطة بمقاصد ما ندعو إليه ، ومعرفة مواضعه ومراتبه ، وما يجوز تأخيره وما لا يجوز ، وما يمكن التسامح فيه حتى حين ، وما لا يمكن ، وهذا كله يستفاد من معرفة مقاصد الشريعة والتمييز بينها وبين ما هو من قبيل الوسائل ، والتمييز بين ما هو ضروري وما هو حاجي وما هو تحسيني من تلك المقاصد .

كما أننا اليوم ـ في ظل التحديات الفكرية والثقافية والإعلامية التي تواجهنا وتحاصرنا ـ أصبحنا أكثر اضطرارًا إلى أن نعرض على الناس ، ونشرح لهم مقاصد شريعتنا ومحاسن ديننا ، فهذا هو الكفيل بإنصاف ديننا المفترى عليه ، وإبرازه بما هو عليه وما هو أهله ، وهو الكفيل بدفع الشبهات ورفع الإشكالات ، وإقامة الحجة كاملة ناصعة ،

ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيَّ عن بينة .

ولأجل هذا كله فقد وجدت نفسي ملزمًا بالاستجابة للدعوة الكريمة التي جاءتني من المعهد العالمي للفكر الإسلامي ، لتحرير رسالة موجزة في مقاصد الشريعة ، وإنه ليشرفني أن توجه إليَّ هذه الدعوة ، كما يشرفني أن يقبل ما كتبته في عجالة وضيق من أمري ، فإن يكن فيه ما يفيد فذلك فضل من الله الكريم ، وإن يكن غير ذلك فحسبي أني أجبت دعوة الداعي ، وفعلت ما استطعت ، شاكرًا لأهل الدعوة دعوتهم ، ممتنًّا لهم على حسن ظنهم .

كما لا يفوتني أن أسجل شكري وتقديري للأخ الأستاذ أحمد عبادي على ما بذله من تشجيع ومساعدة لتحرير هذه الرسالة .

ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .